حكاية فتاةٍ نادتني أبي

بينما كان الحب يضيع

رمضان مصطفى سليمان

في شتاء عام 1940، كانت الجيزة تشبه امرأة فقدت قدرتها على البكاء.

كانت مدينة الأثار يومئذٍ مطفأة الأنوار، ساكنة الشرفات، خافتة الخطى. أُغلقت المسارح والمراقص، وانكمشت المقاهي خلف ستائر ثقيلة، وصارت الشوارع التي كانت تضج بالأغاني والضحكات تمتلئ بخطوات الجنود الانجليز .

كان الاحتلال قد دخل الجيزة ، ولم يكن أثقل ما حمله معه الدبابات والبنادق، بل ذلك الشعور الغامض الذي يهبط على المدن حين يفقد أهلها حقهم في أن يكونوا أنفسهم.

وفي أحد أحياء العاصمة، كانت تعيش فتاة تدعى **ليلى** .

كانت في الثانية والعشرين ، مغنية شابة، ذات صوت نقي يخرج من أعماقها كأنه شيء لم تخلقه الحنجرة، بل خلقه الحزن. كانت جميلة دون أن تتعمد الجمال؛ شعرها الأسود ينسدل في خفة حول وجهها، وعيناها الخضراوان تميلان إلى لون الزبرجد، وفيهما دفء غريب لا يتناسب مع قسوة الزمن.

كانت أمها مصرية كاثوليكية، امرأة هادئة قضت عمرها بين البيت والموسيقى، وكان أبوها طبيبًا فرنسيًا من أصل يهودي، رجلًا قليل الكلام، واسع القلب، يؤمن بأن الإنسان لا يُقاس بما كُتب في سجلات الدولة، بل بما يفعله حين يرى إنسانًا آخر يتألم.

وكان يقول لليلى دائمًا:

"لا تخافي من العالم يا ابنتي. العالم يخاف أكثر ممن لا يستطيع شراءه ولا إخضاعه".

لم تكن تعرف يومها كم ستحتاج إلى هذه الجملة.

بعد استقرار الاحتلال، صدر أمر إلى المصريين بأن يتوجهوا إلى أقسام الشرطة، وأن يعلن كل واحد منهم اسمه وجنسيته وديانته وأصول أسرته.

ذهبت ليلى في صباح رمادي.

كان الناس يقفون في الطوابير صامتين. وجوه شاحبة، أيدٍ ترتجف في الجيوب، عيون تهرب من عيون الجنود.

وحين وصلت إلى النافذة، طلب الموظف اسمها.

قالت: " ليلى ".

ثم سألها عن ديانتها.

توقفت.

في تلك اللحظة فهمت.

لم تكن الأسئلة أسئلةً عادية. كانت شبكة تُلقى فوق الناس، ومن وقع فيها لم يعد إنسانًا له اسم وبيت وذكريات، بل صار رقمًا في قائمة.

خرجت من القسم دون أن تكمل الإجراءات.

كانت تمشي في شوارع الجيزة كأنها لا تعرفها. كانت الأشجار هي الأشجار، والمباني هي المباني، والسماء هي السماء، لكن كل شيء فقد معناه فجأة.

وحين اقتربت من بيتها، رأت الجنود أمام الباب. كان أبوها يخرج بينهم مكبل اليدين.

صرخت : " أبي"!

التفت إليها. لم يقل شيئًا. اكتفى بأن نظر إليها طويلًا. كانت تلك النظرة آخر ما بقي لها منه.

في اليوم التالي، عرفت أنه أُعدم رميا بالرصاص. لم يسمحوا له بمحاكمة. لم يمنحوه حتى الوقت ليقول وداعًا.

جلست ليلى في غرفة أبيها ساعات طويلة.

كانت تنظر إلى معطفه المعلق خلف الباب، وإلى كتبه الطبية، وإلى نظارته الموضوعة فوق المكتب.

لم تستطع أن تبكي في البداية. ثم انهارت. بكت كما لو أن الدموع تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء.

كانت تقول : " لماذا؟"

ثم تسكت.

"ماذا فعل؟"

ثم تسكت.

"لماذا كان مولده جريمة؟"

ولم يجبها أحد.

في تلك الليلة أدركت للمرة الأولى أن بعض الأسئلة لا تبحث عن جواب، بل تبحث عن قلب يستطيع احتمالها.

>

مرت أسابيع.

وفي أحد الأيام، أُعلن أن المسارح ستفتح أبوابها احتفالًا بزيارة وزير الدعاية الانجليزي إلى الجيزة .

كان الغرض واضحًا: يريد الاحتلال أن يرى المدينة تغني من جديد، لكي يبدو كل شيء طبيعيًا.

وفي مساء اليوم نفسه، جاء الكولونيل **جورج** إلى منزل ليلى . كان رجلًا في أواخر الأربعين، بارد الملامح، مستقيم الظهر، يتحدث كما لو أن كل كلمة أمر.

قال : " ستغنين ليلة الأحد".

نظرت إليه ليلى دون جواب.

أضاف: "وسيكون عليك قبل ذلك أن تثبتي أنك مصرية كاثوليكية".

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة لم تصل إلى عينيه.

"أنت المغنية الأولى في الأوبرا. سيكون من المؤسف أن تفسدي مستقبلًا جميلًا بسبب بعض التفاصيل المتعلقة بأصولك".

فهمت.

لم يكن يريد منها وثيقة. كان يريد منها أن تمحو أباها. كان يريد منها أن تقول إن الرجل الذي قتلته سلطات الاحتلال لم يكن أباها.

وفي اليوم التالي، استُدعيت أمها. جلست المرأة أمام الضابط، ويداها ترتجفان.

قال لها: " قولي إن ليلى ليست ابنة زوجك".

رفعت الأم رأسها. لم تستطع الكلام.

اقترب الضابط.

"قولي إنها ابنتك من رجل فرنسي كاثوليكي".

نظرت إلى ليلى .

كانت ابنتها تقف خلف الباب.

وفي تلك اللحظة، انكسر شيء في وجه الأم.

قالت بصوت ميت : " ليلى ليست ابنة زوجي".

كانت الكلمات تخرج منها كأنها تنتزع أضلاعها.

ثم تابعت : " هي... ابنتي من رجل آخر".

لم تتحرك ليلى . كانت تسمع صوت أمها ولا تسمعه. وفي داخلها كان أبوها يبتعد مرة ثانية. لم يقتلوه في ساحة الإعدام وحدها. كانوا يحاولون قتله في ذاكرة ابنته.

>

في ليلة العرض، وقفت ليلى أمام المرآة الكبيرة في حجرتها خلف المسرح. كانت ترتدي ثوبًا أبيض. حدقت في انعكاسها طويلًا.

رأت فتاة جميلة ، شاحبة ، تلتف حول وجهها هالة من الشعر الأشقر، وتلمع في عينيها خضرة الزبرجد.

لكنها لم ترَ نفسها.

قالت في سرها : " من أنا؟"

سكتت.

ثم أجابت : " أنا ابنة أبي".

ترددت الكلمة في داخلها.

ابنة أبي.

ثم قالت : " حتى لو قالوا غير ذلك".

كان المسرح يمتلئ بالضباط. صفوف من الزي العسكري، أوسمة تلمع، وجوه تبتسم، وأيدٍ تصفق.

دخلت ليلى . وانحنت.

ثم بدأت تغني. خرج صوتها نقيًا، قويًا، حزينًا. غنت عن الحب. عن الوطن. عن امرأة تنتظر عودة رجل من الحرب.

وكانت تعرف أن بعض الذين أمامها لا يفهمون ما تخفيه الأغنية.

وحين انتهت، دوى التصفيق.

انحنت مرة. ثم مرة ثانية. ثم اختفت خلف الستار. لكنها لم تعد تلك الفتاة التي دخلت المسرح. لقد وُلدت في تلك الليلة امرأة أخرى. امرأة فهمت أن المقاومة لا تبدأ دائمًا من البندقية.

أحيانًا تبدأ من قرار صامت في أعماق الروح.

>

في الأيام التالية، كانت ليلى تغني كل ليلة. وكان الضباط يزدادون تعلقًا بها.

أما هي فكانت تعود بعد كل عرض إلى غرفتها، تنزع ثوب المسرح، وتغسل وجهها، ثم تجلس في الظلام.

كانت تسأل نفسها : " هل أصبحت خائنة لأنني أغني لهم؟"

ثم كانت تجيب : " أم أنني أخدعهم كي أبقى قادرة على فعل شيء؟"

لم يكن لديها جواب كامل.

فالإنسان في زمن الحرب لا يعيش في عالم أبيض وأسود كما في الحكايات.

هناك مناطق رمادية، كثيفة، مؤلمة، تضطر فيها الروح إلى أن تختار بين شرين، ثم تقضي بقية عمرها تسأل نفسها إن كان اختيارها صوابًا.

ذات ليلة، دخل أحد الضباط غرفتها. كان مخمورًا. اقترب منها بثقة رجل اعتاد أن يحصل على ما يريد.

لم تتراجع. تكلمت معه بهدوء. ثم حدث ما كانت قد خططت له.

كان والدها قد ترك لها أداة جراحية دقيقة، صغيرة الحجم، يحتفظ بها في حقيبته الطبية. كانت تعرف كيف يستخدمها. وكانت تعرف أيضًا أن العنق البشري، مهما بدا قويًا، يخفي تحته مواضع بالغة الهشاشة.

في تلك الليلة، مات أول ضابط.

وحين خرجت ليلى من الغرفة، وقفت في الممر وحدها. لم تشعر بالنصر. شعرت بالبرد.

قالت في داخلها : " أبي، ماذا فعلت؟"

ثم سمعت صوته كما تتذكره : "القتل لا يجعل الإنسان أقوى يا ليلى ".

أغمضت عينيها.

"لكنهم قتلوك".

"وأنتِ لست مطالبة بأن تصبحي مثليهم".

فتحت عينيها. لم تعرف إن كان ذلك صوت أبيها أم صوت ضميرها.

لكنها مضت.

>

بعد ذلك، تكرر الأمر.

كان الضباط يأتون إلى دار الأوبرا، يسهرون، يشربون، ويختارون ليلى .وكان بعضهم يختفي بعدها. واحدًا بعد آخر.

بدأت القيادة الانحليزية تشعر بالقلق.

اختفى ضابط. ثم آخر.ثم ثالث.

وبدأ رجال الشرطة التحقيق.

فتشوا المسارح والفنادق والبيوت. استجوبوا العاملين. راقبوا ليلى . لكنهم لم يجدوا شيئًا.

كانت تختفي بعد كل عرض في مكان لا يعرفه أحد، ثم تعود في اليوم التالي كما لو أنها لم تفعل شيئًا.

وفي تلك الأشهر، تغيرت ليلى .

لم تعد تسأل : " هل أخاف؟"

بل صارت تسأل : " إلى أي حد يستطيع الإنسان أن يذهب حين يصبح الانتقام آخر معنى لحياته؟"

وكان السؤال يرعبها.

لأنها بدأت تكتشف أنها لم تعد تقتل من أجل أبيها وحده.

كانت تقتل لأن القتل صار يمنحها شعورًا مؤقتًا بأنها ما زالت تملك شيئًا من حياتها.

وفي إحدى الليالي، جلست أمام المرآة.

قالت : " ليلى ، هل ما زلتِ أنتِ؟"

حدقت في عينيها. كانتا جميلتين. لكن الجمال صار يبدو لها قناعًا آخر.

همست:

"أم أن الحرب سرقت مني الفتاة التي كنتها، وتركت لي هذه المرأة فقط؟"

>

وفي أحد أيام عام 1941، انتشر خبر زيارة **تشرشل** إلى الجيزة .

أصبحت المدينة أكثر توترًا.

وأرادت القيادة الانحليزية أن يكون العرض احتفالًا كبيرًا.

كانت ليلى تعرف أن تلك الليلة ستكون مختلفة. اختارت ثوبها بعناية. وضعت شعرها في تسريحة بسيطة.

ثم أخرجت من حقيبة أبيها الطبية الأداة الصغيرة التي احتفظت بها طوال تلك الشهور.

نظرت إليها. لم تعد تراها أداة قتل.

كانت تراها ذكرى.

كان أبوها يستخدم يديه لإنقاذ الحياة.

وهي تستخدم الأداة نفسها لتنتزع أرواح رجال قتلوا الأبرياء.

قالت : " سامحني يا أبي".

ثم أخفتها.

>

امتلأت دار الأوبرا بالضباط.

كانت الموسيقى تعزف.

وكانت الأعلام الانجليزية تملأ المكان.

وقفت ليلى تحت الضوء. لحظة واحدة، شعرت أنها وحيدة تمامًا.

ثم بدأت تغني. كان صوتها هذه المرة مختلفًا. لم يكن صوت امرأة تؤدي دورًا.

كان صوت مدينة كاملة. الجيزة التي خافت. الجيزة التي جاعت. الجيزة التي فقدت أبناءها. الجيزة التي ما زالت، رغم كل شيء، تفتح نافذة صغيرة في الصباح.

غنت حتى بلغ صوتها ذروة الأغنية.

ثم حدث الانفجار. اهتز المسرح. ارتفع الدخان. وانطفأت الأنوار.

سقطت ليلى على الخشبة. كان الدم ينساب من جسدها.

حاول الناس الهرب. تدافع الجنود.

اختلط الصراخ بالموسيقى.

لكن ليلى لم تسمع شيئًا. كانت تبحث بعينيها عن وجه واحد. وجه أمها. وبعد دقائق، وجدتها. كانت الأم تبكي عند باب المسرح. مدت ليلى يدها. اقتربت المرأة.

قالت : " أمي"...

وانحنت عليها.

"أنا هنا يا ابنتي".

ابتسمت ليلى . كانت ابتسامة ضعيفة.

"قوليها مرة أخرى".

بكت الأم.

"أنت ابنتي".

أغمضت ليلى عينيها لحظة.

ثم قالت: " هذا كل ما كنت أحتاج إلى سماعه".

كانت أنفاسها تتقطع.

قالت أمها : " من فعل هذا بك؟"

هزت ليلى رأسها.

"لا يهم".

ثم صمتت قليلًا.

"أبي لم يمت وحده".

نظرت الأم إليها.

تابعت:

"لقد أخذوا حياته، لكنني رفضت أن يأخذوا اسمه".

ثم اعترفت لها بكل شيء.

قالت إنها استدرجت عددًا من الضباط، وإنها استخدمت الأداة الطبية التي تركها أبوها، وإنها قتلت عشرين منهم.

لكنها لم تقل ذلك بفخر.

قالت : " كنت خائفة في كل مرة".

ثم ابتسمت.

"أتعرفين يا أمي؟ كنت أظن أن الشجاعة هي ألا نخاف. ثم اكتشفت أنها أن نخاف ونمضي".

وضعت الأم رأس ابنتها على صدرها.

قالت : " لماذا فعلتِ كل هذا؟"

فتحت ليلى عينيها. نظرت إلى السقف. كان الضوء يتسلل من بين الدخان.

وقالت : " لأنني لم أحتمل أن يجعلوا أبي مجهولًا".

ثم أضافت بعد صمت : " ولأنني أردت أن أستعيد اسمي".

سألتها أمها : " اسمك؟"

قالت : " ليلى ... ابنة الطبيب الذي قال إن الإنسان لا يُقاس بما في أوراقه".

ثم أغمضت عينيها. هذه المرة لم تفتحهما.

>

بعد أيام، بدأت قصة ليلى تنتشر في الجيزة .

لم يكن الناس يعرفون كل التفاصيل. لكنهم عرفوا ما يكفي. عرفوا أن المغنية التي كانت تصعد إلى المسرح كل ليلة لم تكن تغني فقط.

كانت تحمل في قلبها قصة مدينة كاملة.

وعرفوا أن أمها اضطرت تحت التهديد إلى إنكار زوجها، وأن ابنتها عاشت بعدها ممزقة بين هويتها وحقيقة العالم.

لم تعد ليلى ، بعد موتها، مجرد مغنية. صارت اسمًا تتناقله الهمسات في البيوت.

وكانت نساء المقاومة يتحدثن عنها، ورجالها يتذكرونها، وبعضهم كان يختلف حول ما فعلته.

قال بعضهم : " كانت بطلة".

وقال آخرون : " كانت ضحية".

وقال آخرون : " كانت الاثنين معًا".

وربما كان هذا هو الوصف الأقرب للحقيقة.

فالإنسان في الحرب لا يكون بطلًا كاملًا ولا ضحية كاملة.

إنه كائن يحاول أن يظل إنسانًا بينما تدفعه الظروف كل يوم خطوة نحو الهاوية.

>

بعد سنوات، انتهت الحرب. انسحب الانجليز .

وعادت الأضواء إلى الجيزة . فتحت المسارح أبوابها. وعاد الناس إلى المقاهي. وعادت الموسيقى إلى الشوارع.

لكن أم ليلى لم تعد كما كانت. كانت تذهب أحيانًا إلى دار الأوبرا، وتقف أمام المسرح الخالي. تجلس في المقعد الأول. ثم ترفع رأسها إلى المكان الذي وقفت فيه ابنتها آخر مرة.

كانت تسمع في خيالها صوتها.

وفي إحدى الأمسيات، قالت المرأة العجوز للمقعد الفارغ :

"لقد كنتِ ابنتي".

ثم صححت لنفسها : " بل كنتِ ابنة أبيك أيضًا".

وسكتت.

ثم ابتسمت ابتسامة حزينة.

"وكنتِ ابنة الجيزة ".

في الخارج، كانت المدينة تستعيد نورها.

لكنها كانت تعرف أن بعض المدن لا تنجو من الحرب كما كانت. وكذلك البشر.

>

ربما لم تكن ليلى قد انتصرت في النهاية. فالذين فقدتهم لم يعودوا. والأب الذي أحبته لم يخرج من القبر.

والسنوات التي سرقتها الحرب من شبابها لم يكن من الممكن استعادتها.

لكنها انتصرت في شيء آخر. لقد رفضت أن تسمح للجلاد بأن يكتب قصتها.

قالوا لها : " أنت لست ابنة أبيك".

فأثبتت أن الدم ليس وثيقة.

وقالوا لها : " أنت مجرد مغنية".

فجعلت من صوتها مقاومة.

وقالوا لها : " نحن نملك جسدك وحياتك".

فاكتشفت، وسط ضعفها، أن للإنسان مساحة أخيرة لا يستطيع المحتل أن يدخلها إلا إذا سمح له صاحبها : **ضميره.**

وهناك، في تلك المساحة الصغيرة، احتفظت ليلى بأبيها. احتفظت باسمها. واحتفظت بالجيزة .

ولهذا، حين انتهت الحرب، لم يكن السؤال الحقيقي : من كانت ليلى ؟

بل : **ماذا يبقى من الإنسان حين يحاول الآخرون أن ينتزعوا منه اسمه، وأباه، ووطنه، وحقه في أن يقول: أنا أنا ؟**

وربما كانت الإجابة التي تركتها ليلى خلفها أبسط من كل الفلسفات:

أن الإنسان قد يُهزم في جسده، وقد يُحاصر في بيته، وقد يُنتزع منه من يحب، وقد يُجبر على الصمت...

لكن هزيمته الحقيقية تبدأ فقط حين يصدق الكذبة التي يريد الظالم أن يفرضها عليه.

أما ليلى ، فلم تصدق. ولهذا بقي أبوها حيًا في ذاكرتها. وبقي اسمها لها.

وبقيت الجيزة ، رغم كل ما حدث، مدينةً تعرف كيف تضيء من جديد.